

علاقة الغرب بالعالم

إعداد الدكتور
جعفر شيخ إدريس

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

من هذه التغييرات أن العالم صارت فيه الآن قوة عظمى واحده لا قبل لدولة بمنافستها لا عسكريا ولا اقتصاديا ولا إعلاميا ولا...ولا.... هذه الدولة العظمى لها مصالح وطنية، واستراتيجية، وثقافية باعتبارها قائدة معسكر الحضارة الغربية.

من حق هذه الدولة ومن يسير في ركابها ويظاهاها من الدول الغربية أن تتدخل في الشؤون الداخلية لكل دولة إذا رأت أن هذا التدخل يخدم مصلحتها المادية أو الحضارية، ومن حقها أن تلجأ إلى ما يسمى بالحرب الوقائية التي يحرمها القانون الدولي فتكون هي البادية بضرب أي دولة تحس منها خطراً على تلك المصالح.

من الذين عبروا تعبيراً صريحا عن هذه الأفكار الاستعمارية الجديدة وزير الخارجية الأمريكية السابق هنري كسنجر والدبلوماسي البريطاني الذي يعد من مستشاري رئيس الوزراء البريطاني.

أبيض

مقدمة

يتكون سكان الأرض من أفراد ينتمون إلى مجموعات أو دول لكل منها سلطة تحكم تصرفات هؤلاء الأفراد. أما المجموعات أو الدول فلا سلطة عالمية تحكم تصرفاتها وتتسق العلاقات بينها. وليست هذه المجموعات أو الدول على مستوى واحد من حيث القوة المادية، بل إن بعضها أشد قوة من بعض. فكيف يكون التعامل بينها. إنه إما أن يكون بما يسمى بشريعة الغاب التي يعتدي فيها القوي على الضعيف فيسلبه أرضه، وينهب خيراتها، ويسخر أهلها لخدمة ما يراه مصلحة له وإما أن يكون بشريعة العدل التي لا اعتداء فيها، لقد كان الخيار بين هذا وذاك وما يزال إلى حد كبير متروكا للدول القوية. الذي ركنت إليه كل الدول القوية الجاهلية عبر التاريخ هو شريعة الغاب. ولعل خير مثال لها هم عاد الذين وصل بهم الغرور أن قالوا «من أشد منا قوة». وعلى شريعة الغاب هذه تأسست كل الإمبراطوريات الجاهلية. أما المجموعات والدول التي اهدت بهدي الله فاخترت شريعة العدل التي انزلها الله تعالى. وشريعة العدل كانت - بدهة - في مصلحة الدول الضعيفة التي لا مقدرة لها على الاعتداء، بل ولا على حماية نفسها من المعتدين.

الاستعمار الغربي القديم:

ولما كانت الحضارة الغربية حضارة جاهلية لم يكن غريبا أن تسلك مسلك أخواتها الجاهليات السابقات، بل إنها حاولت أن تؤصل الاعتداء تأصيلا فكريا ودينيا وخلقيا واقتصاديا وسياسيا، تأصيلا كان كالإجماع بين كل قادة الرأي والعمل فيها: فلاسفتها ورجال دينها وساستها وعسكرها بل وأدبائها^(١). لعله لم تسبق الحضارة الغربية حضارة أخرى في مثل هذا الإجماع على

(١) كان الأستاذ إدوارد سعيد من أول - بل لعله أول - من نبه إلى صلة الأدب الغربي - حتى الرفيع منه - بالاستعمار في كتابه

Culture and Imperialism, Vintage Books, New York, 1994

الاعتداء، ولا في تعدد مسوغاته. ولا في سعة الأراضي التي استولت عليها واستعمرتها أو احتلتها. مقالنا هذا ليس تاريخاً للاستعمار الغربي وإنما هو بيان موجز للفكر الذي كان وما يزال يسنده مع مناقشة موجزة له.

كان من المرتكزات التي اعتمدت عليها تلك المسوغات:

أولاً: العنصرية فقد انتشر بين تلك الفئات التي ذكرناها انتشاراً واسعاً الاعتقاد بأن الجنس الأبيض جنس متفوق بعنصره على الأجناس الأخرى وأنه من حقه لذلك بل من واجبه أن يحكم تلك الشعوب ويقودها إلى طريق الحضارة. كان لهذه العنصرية دعاة يزينونها وينشرونها ويقنعون بها شعوبهم. من هؤلاء المفكر الفرنسي جول هارمان (jules Harman) الذي ظل حتى عام ١٩١٠ يقول:

من الضروري إذن أن نقبل من حيث المبدأ، وبداية انطلاق حقيقة أن هناك هرماً للأجناس والمدنيات، وأننا ننتمي إلى الجنس الأعلى والمدنية العليا مع الاعتراف بأنه إذا كان السمو يعطي حقوقاً فإنه في المقابل يفرض واجبات صارمة. إن الذي يبيح لنا غزو مواطني البلاد الأخرى هو اعتقادنا في تفوقنا، لا تفوقنا الميكانيكي والاقتصادي والعسكري فحسب، بل تفوقنا الخلقى، إن عزتنا تعتمد على هذه الخاصة. وهي التي يعتمد عليها حقنا في توجيه بقية الإنسانية. إن القوة المادية ليست سوى وسيلة لتحقيق تلك الغاية^(١).

ثانياً: احتقار الشعوب الأخرى. وذلك أن الشعوب بالتعالي والاستكبار لا ينفك عن احتقار الآخرين. قال صلى الله عليه وسلم «الكبر بطن الحق وغمط الناس». لذلك كثر في كتابات مسوغي الاستعمار وصف الشعوب التي يستعمرونها أو يريدون استعمارها بكل أنواع المثالب. من أمثلة ذلك ما قاله الفرنسي بوليبي (paul lerory Beaulieu) في كتاب له عن الاستعمار نشر في عام ١٨٩١^(٢).

(1) Quoted in Edward Said, Ibid, p. 17. ترجمتي

(2) S. Rollard et el, Documents of European economic History, Vol 2, pp. 165-67. (<http://web.jjay.cuny.edu/jobrien/referebce/Ob 38. html>).

من المحال أن لا يعد الاستعمار مهمة فرضت على الدول المتحضرة في القرون الأربعة الماضية وبالأخص في عصرنا هذا. ينقسم عالم اليوم إلى أربعة أقسام بالنسبة إلى نوع حضارته. [عدد هذه الأنواع ثم مضى ليقول] حال العالم هذا يستلزم بالنسبة للناس المتحضرين حق التدخل.... في شؤون الناس المنتمين إلى النوعين الأخيرين.. إنه ليس من الطبيعي ولا من العدل بالنسبة للناس المتحضرين الغربيين أن يظلوا إلى الأبد محصورين ومكتظين في الأماكن المحددة التي كانت مأواهم الأول. وليس من الطبيعي ولا من العدل أن يجمعوا هنالك روائع العلم الطبيعي والفنون والحضارة، وأن يروا معدل الفائدة يتناقص كل يوم لعدم وجود فرص جيدة للاستثمار، بينما يتركون نصف العالم تقريباً لمجموعات صغيرة من أناس جهلاء غير مؤثرين هم بمثابة الأطفال الضعفاء، أو لأناس منهوكي القوى لا نشاط لهم ولا هدف كأنهم أناس عجائز.

ثالثاً: نشر المسيحية التي كانوا يعتقدون أنها خير دين وأن الأديان الأخرى - التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً - أديان باطلة لشعوب متخلفة.
رابعاً: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية التي لم تكن ترضى الواحدة منها بأن يكون نصيبها من البلاد المستعمرة أو المحتلة أقل من نصيب غيرها.
خامساً: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول الغربية المستعمرة.

سادساً: الطمع المادي الذي كان يراه بعضهم السبب الحقيقي أو الرئيس للاستثمار، وإن كل ما ذكر من أسباب إنما كان لتجميل وجه هذا الطمع. يرى هؤلاء أن الثورة الصناعية أدت إلى سرعة في إنتاج السلع، وزيادة فيها، فأصبحت من الكثرة بحيث لا يمكن أن تستهلك في الأقطار المنتجة لها، فلا بد إذن من البحث عن أسواق خارجية لها. كما أن المصانع كانت بحاجة إلى مادة خام لا تتوفر في أقطارها. فكان لا بد من البحث عن دول تتوفر فيها تلك المواد، فتؤخذ منها لتصنع ثم ترد إليها لتشتريها سلعا. كما أن الرغبة

في زيادة أرباح تلك المصانع استدعى البحث عن أيد عاملة زهيدة الأجور.. هذا هو التفسير الاقتصادي للاستعمار كما ذكره الاقتصادي البريطاني هوبسن (J.A.Hobson) ثم توسع فيه القائد الشيوعي لنن (LENIE) في كتابه الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية.

هذه المسوغات كلها غير مقبولة خلقا وغير قائمة على أسس علمية: فلقد أثبتت الدراسات العلمية الغربية نفسها أن دعوى تفوق لون على لون أو جنس على جنس أمر لا مستند له، وأيدت بذلك صحة المبدأ الإسلامي أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. لكن هذا الاعتقاد العنصري الباطل وما يزال شائعا بين الناس في كل بلدان العالم تقريبا ولا سيما أمريكا^(١). أما القول بأن بعض الشعوب متخلفة بالنسبة لغيرها من حيث العلم الطبيعي أو المستوى الاقتصادي، أو القوة العسكرية، فقول صحيح لكن ربط هذا بعنصرهم، واعتباره أمراً لازماً لهم، ليس له ما يؤيده من علم ولا من تجربة، بل إن تجارب التاريخ تدل على عكس ذلك، فقد ظل الشعب الإنجليزي مثلاً شعباً متخلفاً إلى أن غزته الإمبراطورية الرومانية فأدخلت في مجتمعه من وسائل المدنية ما لم يكن له به علم ولا خبرة، وقل مثل ذلك عن شعوب أخرى، التخلف الاقتصادي أو العسكري إذاً مسوغاً خلقياً لغزو شعب من الشعوب. والحاجة إلى سوق للبضائع أو مصدر للمواد الخام أو عمالة رخيصة ليست أيضاً بمسوغ للاستعمار، وإلا لكانت حاجة الفرد إلى زيادة دخله أو الارتفاع بمستوى معيشته مسوغاً لسرقته لمال غيره. ولكن كما أن هذا لا يجوز خلقاً. فذاك لا يجوز خلقاً. إن الذي يقتضيه الخلق الكريم هو أن تتكرم الدول المتقدمة بمساعدة الشعوب المتخلفة مساعدة إنسانية، لا أن تستعمرها وتذلها وتأكل خيراتها، وتسلبها أرضها، إنه إذا كانت الشعوب التي استعمرت متخلفة مادياً، فإن الذي يستعمرها ويأكل خيراتها متخلف

(١) كانت أول صدمة شخصية لي بهذا التعصب العنصري أنني ناقشت أحد الشباب الأمريكيان وكنا جميعاً طلاب دراسات عليا في جامعة لندن، ناقشته في مسألة فلسفية فيها شئ من التعقيد. ففاجأني في نهاية المناقشة بأن قال لي: أحب أن أعترف لك بشئ؟ ما هو؟ قال: لم أكن أظن أن أناساً من أمثالكم يمكن أن يكون لهم مثل هذا الفكر!!

خلقيا وإنسانيا، فأنى يكون عنصراً سامياً أو متفوقاً؟
ظل هذا الاستعمار وظل معه هذا الفكر الذي يسنده إلى ما بعد
منتصف القرن الميلادي العشرين تقريبا .
ثم حدثت ظروف محلية في الدول الغربية المستعمرة وعالمية في الدول
المستعمرة (بفتح الميم) أدت إلى إنهاء عهد الاستعمار المباشر وبداية ما سمي
بالدول العظمى .

الاستعمار الغربي الجديد :

ظن الناس أن عهد الاستعمار والغزو قد انتهى، وان دول العالم صغيرها
وكبيرها ستتعلم بعد ذلك بالاستقرار وتعيش في أرضها بسلام وتكون لها
السيادة عليه، وأن القوانين الدولية التي تحرم التدخل في الشؤون الداخلية
لأية دولة ، والتي تحرم ما يسمى بالضربة الاستباقية على أية دولة ، سيكون
موضع احترام بين الدول التي تعتبر كلها أعضاء في هيئة الأمم .
لكن كل هذه الأمانى بدأت الآن تتبدد، وبدأت تظهر أفكار جديدة تدعو
إلى استعمار جديد . من الذين دعوا إلى هذا الاستعمار الجديد شخصان
مهمان أحدهما بريطاني والآخر أمريكي، تأتي أهميتهما من حيث كونهما من
المنظرين القريبين من السلطة الحاكمة، وأنهم من الذين يضعون الأسس
الفكرية التي تبنى عليها السياسة العملية . دعاة الاستعمار الجديد هؤلاء هم
البريطاني روبرت كوبر، والأمريكي هنري كسنجر . يوصف بأنه دبلوماسي
عامل رفيع المستوى، أنه من أهم مستشاري رئيس الوزراء بليير، وأنه الذي
صاغ فكرة العالمية الجديدة التي تمثل النظرة البريطانية الجديدة للعالم
والتي كانت لذلك وراء مشاركة بريطانيا في ضرب أفغانستان، واستعدادها
للمشاركة في ضرب العراق .

يرى كوبر هذا أن الدول في العالم الآن ثلاثة أنواع، أرقاها ما أسماه
بالدولة بعد الحديثة، ثم الدولة الحديثة، ثم الدولة قبل الحديثة، تتكون
الدولة فوق الحديثة من عدة أقطار اختارت أن تجتمع وتتعاون، ورضي في

سبيل هذا التعاون أن تتنازل عن كثير مما كان يعد من ضرورات السيادة في الدولة الوطنية الحديثة، فهي أقطار يعتمد بعضها على بعض وتتعامل بشفافية تقتضي أن تفتح كل منها أبوابها للتفتيش عن الأسلحة، وأن تلتزم بالقوانين التي تصدرها هيئاتها التشريعية، وأن مما تمتاز به الدولة فوق الحديثة هو أنه لن تكون بينها حروب. ولن يطمع بعضها في استعمار بعض. ويرى أن خير مثال لهذه الدولة الحديثة هو الإتحاد الأوربي، لكن من الدول التي تعد حديثة أيضا كندا واليابان وإن كان موقعها لا يساعد على استكمال مقومات الدولة الحديثة. أما الولايات المتحدة ففي أمرها شك، لأن الذي يبدو أنها لا ترى ضرورة ولا مصلحة في الاعتماد المتبادل ولا الانفتاح ولا التدخل المتبادل بينها وبين غيرها.

يلخص كوبر مزايا الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية:

- ١- إزالة الفارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية.
 - ٢- التدخل المتبادل في ما كان يعد شؤوننا محلية لكل دولة، وكذلك المراقبة المتبادلة.
 - ٣- رفض العنف وسيلة لحل المشكلات.
 - ٤- اعتماد الأمن على الشفافية. والانفتاح والنقد المتبادل، واعتماد البعض على البعض.
 - ٥- عدم أهمية الحدود.
- أما الدولة الحديثة هي الدولة الوطنية القطرية التقليدية التي تلتزم بكل مقومات السيادة الوطنية والتي تضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار. لكن مشكلة الدول من هذا النوع أنه يمكن أن تثور حروب بينها، أو بينها وبين الدولة فوق الحديثة. وخير مثال لهذه الدول هو الهند وباكستان.
- وأما النوع الأخير من الدول فهو الدول الفشلية التي لا تستطيع أن تضبط الأمور في حدودها والتي تكون لذلك مطمعا للجماعات الإرهابية المتاجرين بالمخدرات.

نأتي الآن إلى أهم ما قاله الدبلوماسي البريطاني من كلام مثير دفع بالكثيرين في بلده وحتى من حزبه إلى نقده، ويحسن هنا أن نترجم كلامه ترجمة حرفية. قال:

إن التحدي الذي يواجهه العالم بعد الحديث هو أن يعتاد على فكرة المعيارين. فيما بيننا نتعامل على أساس القوانين والتعاون الأمني المنفتح. وأما حين نتعامل مع الدول من النوع الأكثر عتاقة خارج القارة الأوربية فوق الحديثة. فإننا بحاجة إلى أن نعود إلى الطرق الخشنة التي كانت سادة في العهود الماضية - العنف، الضربة الاستباقية. الخداع، وكل ما هو ضروري للتعامل مع أولئك الذين ما يزالون يعيشون في عالم القرن التاسع عشر، عالم كل دولة لنفسها، فيما بيننا نتعامل بالقانون، أما حين نتعامل مع الغابة فيجب أن نلجأ لقوانين الغابة أيضاً⁽¹⁾.

ويقول هذا الدبلوماسي في أماكن أخرى من مقاله إن كل مسوغات الاستعمار التي كانت سائدة في القرن العشرين قائمة الآن. لكن فكرة الاستعمار بمعناه القديم صارت غير مقبولة الآن حتى في الدول الأوربية، فلا بد إذن من استعمار جديد يتناسب مع القيم التي صارت سائدة الآن، قيم الحرية وحقوق الإنسان.

وإذا كان الدبلوماسي البريطاني في شك من أمر الولايات المتحدة، فإن نظريها، وصانعي القرار فيها ليسوا في شك من أمرهم فقد كتب هنري كسنجر مقال هو كالمسوغ الفكري لسياسة الولايات المتحدة الجديدة، قال كلاماً فحواه أن كل القوانين والأعراف والهيئات الدولية القائمة الآن تمت إلى عصر قد مضى، وأنه قد طرأت الآن ظروف جديدة أهمها أن الولايات المتحدة صارت الآن هي القوة العالمية الوحيدة، وأنه لذلك لا يلزمها أن تتقيد في مراعاتها لمصالحها القومية والاستراتيجية بتلك القوانين، ولا بقرارات الأمم المتحدة. من حق الولايات المتحدة إذن أن تلجأ إلى الضربة الاستباقية التي يحرمها القانون الدولي القائم.

(1)The New Liberal Imperialism, Guardian Unlimited, Sunday, April 7, 2007.
(<http://www.co.uk/world/vies/O,11581,680059,00,html>)

مالعمل؟

ماذا نفضل نحن المسلمين والعرب منا بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تكون واقعا جديدا؟ إن أول ما ينبغي أن يفعله هو أن نضع أمام أبصارنا قول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣].

ولقد كان من أكبر نعم الله علينا أن جعلنا أمة عزيزة مستقلة مرهوبة الجانب، قدوة تحتذي به الأمم في كل ما يصلحها من دين وخلق وسياسة واقتصاد وتقدم علمي وتقني. ثم سلبنا الله هذه النعمة فأبدلنا بها تبعية واستعمارا وضعفا وتشتتا وتخلفا في العلوم والتقنية والقوة الاقتصادية والعسكرية. وما فعل الله ذلك بنا إلا بسبب تغيير أحداثنا في نفوسنا. ولا يمكن أن يكون التغيير الذي استتبع كل هذا العقاب الدنيوي الأليم تغييرا طفيفا أو جزئيا، فما كان الله تعالى ليعذب أمة بهذا العذاب الذي نذوقه بسبب ذنب صغير أو تغيير طفيف، لقد كان التغيير إذن في الأمر الذي رتب الله عليه تلك النعمة الكبرى، أعني أمر الإيمان الاعتقادي والعملي المذكور في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

السبب الأول لما نحن فيه من ضعف الآن هو إذن سبب يتعلق بأصل الدين. سيقول بعض الناس لكن السبب هو أننا لم نأخذ بأسباب التقدم الحديث وأنا تفرقتنا ولم نتحد وأنا وأنا... وكل هذه قد تكون أسبابا صحيحة أيضا، لكننا تعلمنا من كتاب ربنا أن نفرق بين الأسباب الأصلية الأولية والأسباب الثانوية التي هي بمثابة نتائج للأسباب الأولية. لقد حدثت للمسلمين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم نكسات في حروبهم مع أعدائهم، وكان لتلك النكسات أسباب ظاهرة، لكن القرآن الكريم كان دائما

يوجه المسلمين إلى الأسباب الأولية ، وكثيرا ما تكون أسباب نفسية .
قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ
عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

لقد كان لهذه المصيبة أسباب مادية كثيرا ما يركز عليها الناس، هي
تحرك الرماه من المكان الذي أمرهم الله تعالى بالثبات فيه. لكن القرآن
الكريم يقول في سبب الهزيمة .

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

فإرادة الدنيا التي كانت الدافع وراء عصيان أمر الرسول كانت هي
السبب الأساسي. وكذلك الأمر في تحليل نكسة حنين. كان لها بالطبع أسباب
حسية ظاهرة. لكن القرآن الكريم رد السبب إلى حال نفسية:

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

فلنعالج السبب الحقيقي إذن. لكن معالجة السبب الأصلي لا تعني إغفال
الأسباب الثانوية فلنعتن بها أيضا، لنعرف ما الأسباب الثانوية التي تجعل
الأمّة في عصرنا أمة قوية، ولا نصد عنها بالانشغال بأسباب لا علاقة لها
بها، لننظر في الأسباب الحقيقية للتقدم المادي للدول الغربية، ولا نتلهى عنها
بالتركيز على أحوال صاحبت ذلك التقدم لكنها لم تكن من أسبابه، بل ربما
كان التقدم رغما عنها لا بها. لكن هذه الظروف المصاحبة والتي لا علاقة لها
بالتقدم المادي هي التي يزينها لنا بعض الناس ويريدون لنا أن ننشغل بها عن
تلك الأسباب الحقيقية.

إن من أهم الأسباب الحقيقية لتقدم الغرب الاقتصادي والعسكري هو
تقدمه الهائل في مجال العلوم الطبيعية بتحقيقه لما يستدعيه هذا التقدم من
شروط. فالتقدم في مجال هذه العلوم هو الذي أدى إلى التقدم التقني الذي
أدى بدوره إلى التقدم الاقتصادي. فعلىنا إذن أن نأخذ بكل الأسباب التي
تجعل من بعض أبنائنا علماء كبار في مجالات العلوم الطبيعية، وأن نعمل
على توطين هذه العلوم في بلادنا لكي لا نظل أبدا تابعين فيها للعلماء

وللمؤسسات الغربية. ومما يستدعية هذا أن نهتم بالنابغين فيها من أبنائنا وبناتنا، وان نرعاهم رعاية خاصة، ونوفر لهم كل الظروف التي تساعدهم على تكريس جهودهم لما نبغوا فيه من هذه العلوم. ومما يساعد على هذا أن لا يكون هذا الجهد جهدا قطريا بل عملا عربيا ثم إسلاميا مشتركا، أقول عربيا أولا لكي تكون لغة هذه العلوم كلها عندنا هي اللغة العربية الفصيحة. ليس من العسير أن نحول هذا الكلام العام إلى مشروعات مفصلة متجددة تحقق لنا ما نريد.

و لما كان هذا الذي نسعى إليه هو تطورنا باعتبارنا أمة مسلمة، فلا بد أيضا من الاهتمام بالنابغين من أبنائنا وبناتنا في مجالات العلوم الإسلامية والعربية. وأن يكون من هؤلاء المختصون في كل العلوم الاجتماعية الحديثة من قانون وعلم اجتماع وعلم نفس وإعلام واقتصاد وفلسفة وغير ذلك، حتى تكون كل هذه العلوم في إطار إسلامي لا إطار الحادي كما هو الحال الآن في العلوم الغربية.

بل إن ذلك وهذا لا يتحققان إلا إذا كانت هنالك ثقافة مشتركة بين الفريقين. أعني أن يكون لعلماء الطبيعة من أبنائنا وبناتنا إلمام بالثقافة الإسلامية. وأن يكون للمختصين بالعلوم الإسلامية والاجتماعية إلمام بالثقافة العلمية الطبيعية حتى يتمكن الفريقان من فهم بعضهم بعضا. لكن هذا الجهد لا يؤدي ثماره كاملة ويجعل منا أمة متقدمة دينا وخلقنا وعلمنا وتقنياً واقتصاديا إلا إذا كان جهدا مشتركا لا أمرا يقوم به كل قطر مستقلا عن الأقطار الأخرى.

لماذا لا نكون من الدول التي وصفها كوبر بالدول بعد الحديثة؟ فإذا كانت الدول الغربية قد اجتمعت رغم اختلاف لغاتها فلماذا لا نجتمع نحن أصحاب اللغة الواحدة؟ وإذا كانت قد تصالحت رغم ما كان بينها من حروب طاحنة، فلماذا لا نتصالح نحن الذين لم تكن بيننا مثل تلك الحروب؟ وإذا كانوا قد ائتلفوا رغم ضعف استمساكهم بدينهم، فلماذا لا نألف نحن الذين

لم يبلغ ضعف استمساكنا مبلغهم؟ وإذا كانوا قد رأوا في الاجتماع حاجة رغم قوة كل دولة منهم ، فلماذا لا تشعر دولنا الضعيفة بحاجتها إلى الاجتماع ؟ وإذا كانوا قد رضوا بأن يبدووا في التخلي عن مقتضيات الدولة القطرية الوطنية التي كانوا هم مخترعيها . فلماذا لا نرضى نحن - في سبيل قوتنا - بالبدء في التخلي عنها وقد كانت أمرا فرضه الغرب علينا لم تكن له جذور في ديننا ولا تاريخنا؟

ومما يساعدنا كذلك أن الأفكار التي عبر عنها كل من كوبر وكسنجر و أضرابهما لها معارضة أشداء في البلاد الغربية. فلنوثق صلتنا بهم ولنتبادل الرأي معهم، ولنحرص على كسب مناصرتهم.

ولكن إذا كان كل مذكرنا مما يساعدنا على الاجتماع والتعاون بل والاتحاد، فلا بد من الاعتراف بأن هناك عوامل لا تساعد عليه منها أن الغرب لا يريد لنا هذا الاجتماع والتقدم ولا يراه في مصلحته، وان ضعف أقطارنا يجعل الكثير منها يتردد في الإقدام على أمر لا ترضى عنه تلك الدول.

ومنها أنه إذا كانت تلك الدول ذات نظم سياسية متشابهة، فإن النظم السياسية في إعلامنا العربي ما تزال مختلفة.

ومنها أن العلاقات الاقتصادية بين كل قطر من أقطارنا والدول الغربية استمر إلى مدة طويلة تجعل تحويله من علاقة قطرية إلى علاقة قومية أمرا صعبا .

ومنها أن مستويات دولنا الاقتصادية متفاوتة جدا تجعل من العسير على الدول الغنية نسبيا أن تفتح أبوابها لأن تتعاون تعاوننا كاملا مع الدول الأكثر فقرا، لكن إذا اقتنعنا بأننا أمة واحدة، وأنه لا مفر لنا من أن نجتمع ونتعاون إذا أردنا أن نعيش في عالم التكتلات، فلننظر إلى الأقطار الأقل تقدما كما ننظر إلى المناطق المتخلفة في داخل القطر الواحد فنعمل على مساعدتها والرقى بها لأن في ذلك مصلحة لنا جميعا .

لكن كل هذا لا يمنع من بداية السير في الطريق، ومن سار على درب

وصل. وقد بدأنا السير فيه بحمد الله، وقامت علاقات تعاون كبير بيننا. لكنها كلها قائمة على افتراض دوام الدولة القطرية. والذي أراه أنه قد آن الأوان أن نبدأ - من حيث الفكر على الأقل - في الدعوة إلى اجتماع نكون مستعدين في التخلي عن مقتضيات الدولة القطرية الوطنية. يجب أن نفتتح بأن هذا أمر لازم لنا إذا كنا نريد أن نكون أمة قوية مستقلة مهابة. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.